

الحلم والتحمل . . .

للأستاذ محمود عزت عرفة

- ١ -

« إنما العلم بالتعلم والحلم بالتعلم ، ومن يتخير
الخير يعطه ، ومن يتوق الضيقة »
حديث شريف

لا ينهض رواج الرذيلة في هذا العصر المادي دليلاً على رجحان
كفتها في ميزان الأخلاق ، إذ ما يزال للفضائل القِدح الممل ،
ولا يزال الفضلاء - على قلة فيهم وضعف - أقدراً للناس على
الجهير بالدعوة إلى مذهبهم ، وأقومهم بالحجة في الإبانة عن صحة
مأخذهم . . . وحسب الرذيلة من ضمة أنها مقرونة أبداً بالتواري ،
عجبة بقناع التخفي ، لا تحيا إلا في مداهم من الظلام ، ولا
تنشط إلا على غفلة من العقل ، وغفوة من سلطان ضمير .

والخلق النفسى قسماً : فطرى وكسبى . وليس لنا من أمر
الخلق الفطرى شيء إلا أن نشكر واهبه على ثمرات خيره ،
ونستعيز به من بائقات شره . أما الثانى ، وهو ما تنهيا النفس
لا اكتسابه من صفات خلقية ، فذلك الذى يتسع معه مجال
الحديث ، بل من أجله سنّ الباحثون قوانين الأخلاق وقواعد
السياسة والتربية ، وسائر علوم الاجتماع .

ولا يكاد يتصور لهذه العلوم وجود إلا مع الاعتراف بأهمية
الصفات الكسبية للنفس كدعامة من دعائمها ، وعنصر
- بالغ الأهمية - من عنصريها .

ولقد أخذ ابن مسكويه^(١) على منكبرى « التطبيع » قولهم ،
وأبلغ - ولم يبالغ - في تقدير الخلق الكسبى ، وما تنهيا له
النفس من قبول التحول ، والانصياع إلى ضروب التأديب
والتهذيب . يقول في فصل من كتابه « تهذيب الأخلاق » :
اختلف القدماء في الخلق فقال بعضهم : الخلق خاص بالنفس غير

الناطقة^(٢) . وقال بعضهم : قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ .
ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم : من كان له
خلق طبيعى لم ينتقل عنه^(٣) . وقال آخرون : ليس شيء من
الأخلاق طبيعياً للإنسان ، ولا نقول إنه غير طبيعى . وذلك أننا
مطبوعون على قبول الخلق ، بل تنتقل بالتأديب والمواعظ إما
سريماً أو بطيئاً . وهذا رأى الأخير هو الذى نختاره لأننا نشاهده
عياناً ، ولأن الرأى الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل ،
وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى
ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير حياصة
ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً - انتهى قول ابن مسكويه .
ويقول الغزالي في مثل هذا المعنى^(٤) : لو كانت الأخلاق
لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم ! وكيف
يُنكر هذا في حق الأدنى وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينقل
البازى من الاستيعاش إلى الأُنس ، والكلب من شره الأكل
إلى التأدب والإمساك والتخيلة ، والفرس من الجراح إلى السلاسة
والانقياد ؟ وكل ذلك تغيير للأخلاق ؟

وإذا نحن أدركنا هذا القول تسمى لنا أن نفهم الحكمة
الجليلة التى ينطوى عليها قول الرسول عليه الصلوات : « إنما العلم
بالتعلم والحلم بالتعلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق

(١) يقسم ابن مسكويه القوى النفسية ثلاثة أقسام : القوة الناطقة ،
وتسمى الملكية (العقل) ، والقوة الشهوية وتسمى البهيمية ، والقوة
الغيبية وتسمى البجبة . ومعنى تخصيص الخلق بالنفس غير الناطقة أنه طبعى
وجبلى - أى غريزى - لا أثر فيه للدربة ولا للتفكير . وذلك هو
الرأى المرجوح الذى يفنده ابن مسكويه والغزالي ، كما سترى بعد .

(٢) لدل أبا الطيب كان يأخذ بهذا المذهب حين قال :

وأسرع مفعول فعلت تنهياً تكلف شيء في طباعك ضد

وقال :

وإذا الحلم لم يكن من طباع لم يعلم تسمم البلاد

وقال :

قلنا يسألون في نوبه إلا الذى يلوم في غربه

من وجد للذهب عن قدره لم يجد للذهب عن نفسه

وقال :

يراد من القلب لسانكم وتأنيب الطباع على الناقل

(٣) جزء ٣ صفحة ٤٨ من سفر الإحياء (كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق)

(١) أبو علي أحمد بن محمد - توفي سنة ٤٢١ هـ .

أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم (أى تكاف الحلم) ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلانه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكافاً . هـ

ويدوان ابن مسكويه كان أدق فهماً من الغزالي للحقيقة الحلم وموضعه من التحلم ، عند ما جعل الحلم خلقاً أساسياً في بعض النفوس ، ثم أوضح إمكان اكتسابه بالمعالجة فيسمى حينئذ تحلماً . وهو يقول في الكشف عن حقيقة الحلم : متى كانت حركة النفس المعصية ممتدة ، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها ، فلا تهيج في غير حينها ، ولا تمنح أكثر مما ينبغي لها ، حدث عنها فضيلة الحلم ، وتبعتها فضيلة الشجاعة^(١) ، ثم بين السبيل لبلوغ فضيلة التحلم عند فقد الحلم بقوله : من أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه ، فليقابل ذلك بالتعرض لسيئه يعرف بالبذاء ، ثم ليتحمله ، ولينتدلل لمن يعرف بالخيرية^(٢) ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك .

على أن من الإنصاف للغزالي أن نقول : إنه كان فيلسوفاً (عملياً) في مقارنته بين الحلم والتحلم ، فهو لا يكاد يعترف إلا بالتحلم أصلاً وفرعاً ، لأنه محله التجربة ومظهر المجاهدة والمعاناة ، وفلسفة الغزالي الخلقية كلها تقوم على هذا الأساس . أما ابن مسكويه ففيلسوف (نظري) عمين الفكرة ، يجرد الحلم أصلاً قائماً بذاته ، ثم يلتقي مع الغزالي في بسط قضية التحلم ، وبيان السبيل إلى بلوغه تكافاً .

فن الجاز إذن — لا الحقيقة — أن نقول مع الغزالي : إن كظم الغيظ واعتياد التحلم يصبح (حلماً طبيعياً) — وإن كانت هذه العبارة هي أفضل ما يجري على لسان مرربٍ بمعنى

الشرع بوقته . فالتحلم والتعلم والتبصر والتوق والتودع والتصبر والتكرم والتعفف وغيرها من هذه الصفات التي تنطوي في صيغتها على معنى التكاف إنما هي معدودة من أهم مقومات الخلق النفسى ومن أخطر العناصر في تكوينه . وهى إلى ذلك وسيلة ميسورة إلى ترقى النفس في مدارج الفضيلة واكتسابها ما حرمته بالفطرة من أسباب الخير . ثم هى مقوية للفضائل ومقوية بها ، لما هنالك من واضح العلاقة بين القسمين . يقول أبو على الغالى في أماليه : العقل عقلان : فمقل تفرد الله بصنعه ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وتجربته . ولا سبيل إلى العقل الاستفادة إلا بصحة العقل المركب ، فإذا اجتمعا في الجسد قوى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة نور البصر .

الحلم والتحلم :

قال ابن مسكويه : الحلم فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شغية ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة . هـ
وواضح أن الحلم — كخلق فطرى — يؤدي إلى طمأنينة النفس . على أن هذه الطمأنينة من ناحيتها تكسب النفس صفة الحلم وتمكن لها منه ، والحلم المكتسب هو (التحلم) نفسه . فطمأنينة النفس نتيجة للحلم وسبب للتحلم ، ومن هنا يصعب الفصل بين الخلقين ولكنه لا يستحيل ، لأن الحلم إذا جاء عفو الطبع ، وبدون تكلف له ولا تحامل على النفس فيه ، فالتحلم لا يكون إلا نتيجة مران وعمر ممارسة ومعاناة . وليس من شك في أن الأول يفضل الأخير ، كما يفضل الأصل الفرع ، ويشأو السابق^(١) اللاحق^(٢) .

والغزالي يردف التحلم « كظم الغيظ » ، فهما عنده شيء واحد يقل في الرتبة عن الحلم ، ولكنه يتحول إلى الحلم نفسه بطول المجاهدة التي تقضى إلى الاعتياد . فهذا الفيلسوف لا يكاد يتصور للحلم وضماً إيجابياً أو مظهراً مستقلاً ، إلا أن يكون صورة كاملة استوفت خطوطها وألوانها من مظاهر للتحلم توات على النفس وتمددت صورها حتى استوت فيها خلقاً كاملاً تصقله المجاهدة وتهذيب الدربة وفرط المعاناة ؛ وإليك عبارته^(٣) : « اعلم

(١) أى أن كبح القوة النفسية ينتج الحلم ، واستئصال هذه القوة في وجهها ينتج الشجاعة .

(٢) هكذا وجدتها (بالخيرية) ولعلها تضعيف للكلمة (بالخيرية) .

(١) أى في مجرد سبق في الوجود والتقدم في السكون .

(٢) إحياء علوم الدين ج : ٣ ، ص : ١٥٣ .

إلا حين يصطنعها السَّراة والوجوه وأعيان الناس . روى أن علياً (عليه الرضوان) سأل رجلاً من أهل فارس عن كان أحد ملوكهم سيرة . قال : أتو شروان . فقال علي : أى أخلاقه كانت أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة . فقال علي : هما قوام الملك ، تتيجهما علو الهمة !

ولقد بلغ بعض الملوك والرؤساء من الحلم مبالغ تثير الدهشة وتستخرج المعجب ؛ وليس يمزى هذا إلى طيبة فهم بأكثر مما يمزى إلى الظروف التى أحاطت بهم . ونحن نحب أن نقف قليلاً عند بعض من طارت شهرتهم بالحلم ، وأخذوا من التحلم بأسباب قوية ، فنتبين مظاهر هذين الخلقين فيهم ، ونلّس البواعث عليهما ، والمقاصد الخفية أو الظاهرة الدافعة إليهما ...

محمود عزت عرفة

(يتبع)

جامعة فاروق الأول

كلية الآداب

جائزة واصف غالى باشا

تمن كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالأسكندرية أن لديها حوالى مبلغ ١٠٠ جنيه جائزة من حضرة صاحب المصطفى واصف غالى باشا لمن يكتب أحسن بحث فى أى موضوع يتصل بالأسكندرية فى أى عصر من عصورها . فعلى من يريد أن يدخل هذه المسابقة أن يقدم إسمه وعنوان موضوعه فى ميماد غايته آخر أكتوبر سنة ١٩٤٦ والموضوعات التى ترى الكلية صلاحيتها للمسابقة ستعلن إلى أصحابها كتابة أبحاثهم فيها ويشترط فى الأبحاث أن تكون باللغة العربية . وترسل المكاتبات الخاصة بهذه الجائزة باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب بالأسكندرية .

٦٠٧٢

بتهديب الأخلاق وهداية الناس إلى سبيل الفضائل ، بتيسير وسائلها لهم ، وتهوين مشقة إحرازها عليهم .

فضيلة الحلم :

إن الحلم إذن بفضل له ومزية ، وطال على التحلم قدر ما يطول أصل على فرع ، وأول - فى الكون - على أخير . وما ثمة شك فى أن الحلم أثبت على تنابع المنيرات ، وأبلغ فى الدلالة على كرم النفس ، وصفاء موردها من نبغ الفضيلة . وليس يتصل الحلم بنفس إلا وقد تم لها إلى جانب حظها من التحلم ، إن لم يكن فى الأول الفناء كله عن الثانى . والنفس بعد من نتيجة التحلم على شك ، تسمى إليه فتبلغ حيناً وتقصر أحياناً ، وإنها لتلقى فيه من البلاء ما يضجرها منه مرة ، وقد يصرفها عنه أخرى .

وإن فى الناس مثل عمر الذى كان يبلغ بالتحلم حد الحلم دون مجهود ، حتى ليلقى الرجل السكران مرة فيزعم أخذه وتمزيقه ، ويشتمه السكران فيرجع عنه ، ثم يسأل عن ذلك فيقول : إنه أغضبني ، ولو عززته لكان ذلك لنفسي لنفسي ، ولم أرد أن أضرب مسلماً حية لنفسي ؟ !

وفى كتاب الإحياء أن أشج عبد القيس وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العمية ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع . ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله . قال : ما هما بأبى أنت وأبى يا رسول الله ؟ قال : الحلم والأناة ! فقال : خلطان تخلفتُهما ، أم خلطان جُبلت عليهما ؟ فقال : بل خلطان جبلت الله عليهما . فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله . فقد كان رسول الله عليه الصلوات إذن أعلم الناس بفرق ما بين الحلم والتحمل ، ويُعَد ما بين الطيبة والتطبع ، وإنه ليمتدح صاحبه - فيشلى قلبه ، ويستحمله ربه - حين يجيبه عن سؤاله بقوله : بل خلطان جبلت الله عليهما !

هذا ، والحلم سيد الأخلاق - كما يقولون - لأنه السجينة النسيطة التى لا تليق إلا بالملوك والأمراء ، ولا تأخذ أروع زينتها